

## « بنك القلق »

بقلم نبيل فرج

وقد كانت اخر هذه الارتبادات التي طلع بها على الوسط الادبي في القاهرة مسرواية « بنك القلق » (١) التي عقد فيها مزاجه بين المسرح ، الذي يقف فيه كالكلمة السماء ، والرواية التي ابدع فيها « عودة الروح » (١٩٣٣) ، و « الرباط المقدس » (١٩٤٤) .

والمسرواية اطار جديد في الادب العربي ، لتوفيق الحكيم فضل المبادرة بممارسته و اضافته الى رصيدها الادبي . يتقيد هذا الاطار باصول الشكلين المقررين للرواية والمسرحية من فصول ومناظر متساوية العدد ، واسلوب الاداء ، والخصائص الفنية الاخرى .

يصف الحكيم في الفصول الشخصيات من الداخل والخارج ، في حانها وماضيها . ويمهد بالاحداث الروائية المليئة بذكي الالتفاتات . حتى اذا بلغ الموضوع حدا يتحتم فيه على الشخصيات ان تلتقي لقاء مباشرا ، في لحظات حاضرة ، تغيرت الاداة الفنية في يد الكاتب ، بما يناسب الموقف ويجسده ، وتحول الى الحوار المركز .

اي ان استخدام السرد او الحوار يجيء عن ضرورة يحتملها التصميم الذي رسمه الكاتب لهذا العمل الفني الذي يدرج تحت المسرح اكثر من الرواية .

لذلك فليس صحيحا ما ذهب اليه الدكتور عبد القادر القط دون ان يشرح وجهة نظره ويعللها من ان « كل منهما تؤدي وظيفة مستقلة عن الاخرى دون ان يتم بينهما ترابط حقيقي » ( روز اليوسف ، اول اغسطس ١٩٦٦ ) .

ان الترابط قائم هنا على التسلسل المنطقي والتكامل والتآزر ، بما يحفظ للاحداث سيرورتها واطرادها الدائم ، ويصون لكل شكل تقاليده ، فلا يقص على السنة الشخصيات في المسرحية احدانا قديمة ترد كالتخبر مكانها الرواية ، ولا يضمن سرده وتحليله في الرواية حوارا موضعه المسرح .

وجلي انه من تحصيل الحاصل ان يؤكد الناقد ، بعد ذلك ، ان هذا العمل الفني نسيج واحد ، يؤدي وظيفة واحدة لا تنقسم او تنجزا في السرد والحوار ، ولا يصلح الا على هذا النحو الخاص الذي اختاره له توفيق الحكيم ، واستنزل فيه افكاره ومعانيه .

والمسرواية احدي الاعمال الفنية القليلة التي تدور وقائعها بمسند الثورة . اراد بها توفيق الحكيم ان ينتقد كثيرا من العيوب التي لا تزال تصرب اطنابها في الحياة الجديدة . يتناولها على ضوء ما يفتنقه من ان القلق « داء عصرنا الحديث الذي يشكو منه اكثر الناس » ، فيدفع بنمطين من الاشخاص هما ادهم سليمان ، العقل المفكر ، وشعبان جاد عوضين العاطفة الجامحة ، لفتح بنك القلق ، يتاملان فيه مع هذا المرض الذي يقدر الحكيم سيادته على الحياة .

واذا كان هذا المرض سائدا في كبر من بلدان اوروسيا الغربية واميركا ، والدول العربية المتخلفة ، فليس سائدا عندنا ونحن نشبت دعائم المجتمع الاشتراكي الجديد .

وحتى لو كانت طبيعة المرحلة الاخذة في النمو التي نجتازها تسبب مثل هذا القلق ، وهو ما لا يستشف عند الحكيم ، فليس من صالحنا

استغفرت رحلة توفيق الحكيم في الخلق الفني حتى هذه الاوقات اكثر من اربعين سنة . لم يفت من غصده مصاعب المرحلة التاريخية التي عاصرها . وعلى الرغم من تقدمه في السن ، فلا تزال طاقة الابداع لديه على نفس المستوى . ولا تزال موهبته الادبية تتدفق بالانتاج ، وتتلاق بالقيم الفنية والفكرية التي لا يسع المرء حيالها الا ان يفض الطرف مؤقتا عن الخلاف البين الذي تشيره ، ويتساءل في حيرة وزهو: من أي نبع ثري يستقي هذا الكاتب الكبير فنه ؟!

والى جانب ذلك يعد توفيق الحكيم من اكثر الابداء العرب المعاصرين ارتبادا للافاق الجديدة في الفن . وليس من الغلو ان اقر ان كل عمل فني يصدر له بمثابة حفل تجارب ، على المسرحيين ان يفيدوا من بعض نواحيه في تحقيق الدور القيادي الذي يقع على المسرح عبء ادائه .

الا ان اهم هذه الارتبادات ما لازمه واطلق عليه « المسرح الذهني » . وهو مسرح فكري ، يطرح قضايا فلسفية تآثر فيها الحكيم بروح الشرق ، ترمز كل شخصية فيه الى معنى من المعاني المجردة : « اهل الكهف » (١٩٣٣) ، « شهرزاد » (١٩٣٤) ، « بجماليون » (١٩٤٢) ، قدمها للقراءة في بادئ الامر . ثم قبلت الاخراج بعد ذلك على النصبة ، وتبين انها نماذج تحتذى للمسرح الحقيقي النابض بحركة الافكار .

وحاول في مسرحية « الصفقة » (١٩٥٦) ان يوحد لغة المسرح ، على نحو ما هي في الادب الاوربية ، بتجريب لغة ثالثة قريبا مما يتخاطب به المثقفون . لغة تحافظ على سلامة الفصحى . وعند تسكين او اخر كلماتها تنطق بالعامية . وبقلب حرف القاف الى جيم او همزة تنطق بلهجة الاقليم الذي ينتمي اليه الفرد في الريف او الحضر . وبعد تسع سنوات ، وفي مسرحية « الورطة » (١٩٦٥) ، تسامح شيئا في قواعد الفصحى ، واختزل اسماء الاشارة والاسماء الموصولة ، من اجل التبسيط والاقتراب من العامية التي اخذ اصحابها الحقيقيون يرتفعون ، بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الى مستوى اجتماعي وثقافي لائق بانسانيتهم . كما ان توفيق الحكيم ، في مسرحية « رحلة الى الفد » (١٩٥٨) ، كان اول من استجاب للانتصارات العلمية الباهرة باطلاق الصواريخ الى القمر ، وان كان مضمون المسرحية يتناقض مع هذه الانتصارات في الحاضر والمستقبل في ظل سيادة النظم الاشتراكية على ثلث العالم ، لان ثمة موروثات قديمة غير علمية عند الحكيم تجفله من نتائجها وتحول بينه وبين الوقوف على قمة الوعي بعصره .

وفي غضون النهضة الفنية الكبرى التي شهدتها بلادنا فيما بعد سنة ١٩٦١ ، تاركة كافة الزهور تفتتح من اليمين واليسار وما بين بين ، نظر الحكيم الى اتجاه صمويل بيكيت واوجين يونسكو ، واستلهم من فنوننا الشعبية المصرية القديمة مسرحية « يا طالع الشجرة » . خرج عن الواقعية تماما ، وتحرر من الاسس التقليدية في الفن ، وخلص - على زعمه - من المعنى والمنطق . ولكن انى لفن القول ان يتحرر من الدلالة ؟! واقصر في معارضته لمأساة « الكترا » ، في « الطعام لكل فم » (١٩٦٣) ، على احدي الحيل الفنية في الشكل ، وامتنع بدخله فكرة العدالة والاخلاق على محك احتياجات العصر .

وغير ذلك كثير مما جعله يتبوأ اعلى مكانة في الحياة الادبية ، وجعل لاعماله مكانا اثيرا ، تستهل بنصوصه المواسم المسرحية ، وتفتتح بها الفرق الجديدة في الاقاليم .

(١) الملحق الاسبوعي للجريدة « الاهرام » . الاعداد الصادرة بتاريخ

٣ ، ١٠ ، ١٧ ، ٢٤ ، يونيه - ١ ، ٨ ، ١٥ ، ٢٢ يوليو ١٩٦٦ .



ان نقيم عليه بناء مسرحيا ، ونعلمه بهذا الشكل المتفزع في مواطن عديدة من المسرواية ، توسع حجمه الطبيعي .

\*\*\*

يفتح توفيق الحكيم عمله الفني بشخصية ادهم وهي نمر بحالة من حالات الفراغ والصلعكة . وادهم هذا شاب مفلس يعيش في احلامه الخاصة . دائم السؤال عما يرى دائم الجواب . يقف بدافع الفضول امام ملهى يعرض ضمن العابه نمره تلفت النظر : ناطحة سحاب من البشر ، يتسلفون اكناف بعض ، وعلى فمهم حسناء . يفكر ادهم ان هذا البنيان المتناسك يمكن ان يهدم في طرفه عين بأقل عطسة ، بأقل خلل ، و « ينقلب الموقف البطولي الى مهزلة » .

هل يرمز الحكيم بهذا المشهد الى الحياة الحديثة المعرضة كذلك ان ياتيها الدمار فجأة ؟!

ويتطرق التفكير بادهم الى ان كل واحد ، سواء من اللاعبين اولئك او المشاهدين له قصة فلفه . نم يتابع مسيره على كورنيش النيل ، يطالع بعين الفد في نلاوي العتاق بخلاواته « أزمة مساكن ومواصلات ومواد استهلاكية » .

وعلى احد مقاعده الحجرية جلس منهك اتفوى ، ينتهد نهدة ايقظت النائم الى جواره . « حمله كل منهما في صاحبه . وهنا انطلقت من كل منهما صيحة في نفس الوقت » .

ومن هذا اللقاء الذي وقع بالمصادفة يبدأ المنظر الاول . انهما زميلان قديمان في كلية الحقوق ، فصلا عنها بعلم اهرب الى النهريج . ثم فرقت بينهما الحياة ، فاشتغل ادهم مخبرا صحفيا تم فصل ، لانه كان يؤلف الاخبار من عقله . واعتقل بسبب ارائه اليسارية المتطرفة . ونزوح شعبان اربع ثم برهن جميعا ، وعمل في وظائف مختلفة . (واخيرا عشت منفردا كما ترى ، التقط اللفظة حيث اجدتها) ، ولا يكف عن البحث عن النعمة .

عندئذ يقترح عليه ادهم ان يفتحا بنكا ، يتم التعامل فيه بالقلق - هذه العملة الرابحة التي لا يسلم منها انسان . يعالجان العملاء المرضى منه باجر كبير ، ويعالجهما العملاء باجر أقل ، والفرق هو مكسبهما . فتلقى الفكرة في نفسه هوى .

وبشروعها في تنفيذ الخطة ، في الفصل الثاني ، يكون السرد الروائي اوفى في التنقل بهما في شوارع المدينة في الليل ، يحددان مواضع لصق الاعلانات عن المشروع . ثم يتوجهان ، فسي باكر الصباح ، الى بيت ادهم ، ليستيقظا على اذان العصر ، وبعدا نسخا من صحيفة الاعلان ، الصفها شعبان - بعد ان اوغل الليل - على اكشاك السجائر ودكاينها ، باعتبار ان المدخنين اكثر الناس فلغا .

وعادا من جديد الى شقة ادهم ، حيث يدور المنظر الثاني ، وهما ينظران نشريف الزبائن .

ولسوء الحظ يكون اول طارق صاحب البيت . جاء يطالب بايجار اربعة اشهر متأخرة ، فيفاجأ بان الشقة تحولت الى « بنك » ، وانه ، اذ يوضع موضع المرض والمعالج في آن بحسبة تخلصهما من الدين ، قد سقط في شرك نصب .

بعد ذلك يدخل صحفي يدعى متولي سعد ، يتخذه الحكيم وسيلة للتعريض بفئة الصحفيين المترفة . جاء هذا الصحفي الى ادهم، زميله السابق ، لكي يعيد له كتابة تحقيق صحفي عن « الاتحاد الاشتراكي في كفر عنبة » ، فرية ادهم التي لم تطاها فدماء منذ فارقتها في طفولته . ولا يعدو الفصل الثالث ان يصور لنا الانظار الذي ينتهي في المنظر الثالث بوجيه ثري يدعى منير عاطف . رجل من هذبة الفئة الاقطاعية التي ضربت مصالحها في التصميم بقانون اصلاح الزراعي . حددت ملكيته للارض من خمسمائة فدان الى مائة فدان . يركب الموجة العالية ويتظاهر بانه مع الثورة . اما في داخله فينقم عليها ويعمل ضدّها في الخفاء .

وقد وجد هذا الثري « بنك الفلق » فرصة مؤاتية لتحقيق اغراضه بجمع الساخطين عن طريقه ، فاشترك فيه ، وقام بتحويله بالنتقات على نطاق واسع ، دون ان يدرك ادهم او شعبان انها وقعا في حبال من يقوم بنشاط مريب . اعطاها نقودا ، وخصص لهما

مربا نابنا « خمسة وعشرين جنيها في الشهر » ، واجر باسمهما شقة في شارع شبرا خالصة الايجار لمدة سنة ، يسدور المنظر الرابع ومسا يتلوه من مناظر في غرفة ادهم بها .

وتتعرف في هذا المنظر على بنت شقيق منير ، فتاة جميلة ندعى مرفت ، حقيقة الامر انها مطلق ، وعلى خالتها العانس ، وحقيقة الامر انها غير عانس ، فاطمة هانم التي يتخذ منها شعبان وسيلة الى مرفت التي خلبت ليه من النظرة الاولى .

ويمثل نعلفه بها في حديثه الدائم عنها مع صديقه ، في الفصل الخامس . وفي المنظر التالي يتوجهان من جديد الى المكتب ، فتطرق مرفت الباب بعد قليل ، لكي تستفسر عن « بنك الفلق » هذا الذي علمت يافمته على الباب .

فرصة ذهبية تتاح لشعبان عليه ان يستقلها الى اخر المدى . اعتبرها مريضة وسألها عما يلفها في هذا العالم ، فوجد ان فلفها ناشيء من عدم وجود عطر « اسكندال دي سوار » في السوق ، رغم ظهوره في باريس من مدة ، وحصول احدي صديقاتها عليه .

هذا هو القلق الذي نعانيه هذه الطبقة الفارقة في النعمة والترف، في فترة تحول المجتمع الاقطاعي الى الاشتراكية .

الا ان الزبائن الذين اتوا بعد ذلك يشكون القلق ، يمثلون نماذج عدة من المجتمع ، قدمهم الحكيم لينتقد بهم مظاهر حياتنا المعاصرة .

الزبون الاول اب ، رسب ابنه في الثانوية لانه « وقع في حب فتاة .. بنت الجيران » ، وحار الاب فيه : « ما يقلقني هو انه يعيدنا ويعيد معها نفس المأساة » .

ويختلف الزبون الثاني اخلاقا تاما . فليس ما يقلقه امرا خاصا بل هو عام : « هذه الرجعية التي حولي ، هذا المجتمع الرجعي الذي انفس فيه .. » ، مطمحه ان يقضي على التخلف ويفسح الطريق « امام كل فكر تحرري تقدمي .. » .

ويقف الزبون الثالث على النقيض منه في تبرمه . ما يلفه « هذا الاتحاد المتفشي في البلد » . ويرى ان « نار الله الموقدة يجب ان تصب صبا على مجتمع بهذا الفجور » .

هذان الزبونان الساخطان سخطا سياسيا ينحولان الى الوجيه الثري في القرعة المجاورة التي يصفي منها لا يدور .

ولا شك ان بقاء الوجيه بعيدا عن المسرح ابتهت شخصيته جدا

# بحار...

سفني لم تبرح بعد المرفأ  
مذ كانت سفني والبحر عواصف لا تهدأ  
أشرعني بليت وحبالي كادت أن تتهرا

\*\*\*

عبثا قدمت القربان لالهة البحر  
وسدى صليت بكيت نحرت النحر  
الملاحون على سفني عشش في اعراقهم الضعف  
وهبت أيديهم ألفوا الراحة عرفوا الخوف  
ما عاد يحرك احلامهم هذا الافق الرجراج  
ما عاد يثير حماسهم همس الامواج  
سئموا مضغ سؤالهم المتعفن  
ترديد متى نبحر  
وتراب الشاطئء ضاجع اعينهم حتى ارمدها  
حتى ما عادت تبصر  
الملاحون على سفني فقدوا النطق وفقدوا السمع  
ونسوا كيف تدار الدفة  
كيف يشد القلع  
عبثا أهتف في البحارة .. اوقظهم اصرخ  
لا يجدى الصوت  
مات البحارة في سفني  
قبل لقاء الموت

\*\*\*

الجزر المشوذة في اجفان الغيب  
والبحر اليها أنواء .. لجة رعب  
كيف سامضي ؟ ما عادت تحرس خطوى  
عين الرب

والقدر الاسود ما غض الاجفان  
ما زال السيف على كف القرصان  
يحلم بالفتح وبالاسلاب  
وبأن يفرس في لحمي الانياب

\*\*\*

سفني لم تبرح بعد المرفأ  
مذ كانت سفني والبحر عواصف لا تهدأ  
أشرعني بليت وحبالي كادت أن تتهرا  
والرحلة يا ويلي قدر محتوم .. فمتى أبدا ؟

عبد الكريم السبعواوي

غزة

ولم نحمل على كرمه .

اما الزيتون الرابع فمصدر قلقه تحمسه البالغ للكرة . هذه اللبنة التي بلغ الاهتمام بها بين الكبار والصغار حداً مخيفاً لا يؤيده الحكيم . والمضحك أن هوس الزيتون بنادي الزمالك يعدي ادهم بدوره ، فيدافع عن هذا النادي بحرارة .

والحق ان تغييراً متفلفلاً قد دب في نفس ادهم الذي بدأ يائسا ، جعله في النهاية يعتقد انه مسئول عن الامة كلها . ويرجع قلق الزيتون الخامس الى ما يمتلئ به العصر من صواريخ واضطهادات وثورات .

والزيتون السادس عامل في مصنع نسيج بشيراً . مثال للامانة . له زميل « طبعه الهمال والكلفتة » . وقف محيراً قلقاً بين السكوت عنه ، فيصاب الانتاج بالضرر ، وتبلغ المسئولين فيتهم بالوشاية بزميل . ويسفه الزيتون السابع الاقتضار على الاقضاء بالقلق في مكان ضيق ، مثل هذه الفرقة . ويريد لو ارتفعت المارضة والتعبير الحسار المطلق الى اوسع نطاق . صيد جديد يطلب الوجيه تحويله اليه . ومع الزيتون الثامنة تطرق مشكلة الغلاء والتطلعات الطبقية . ام عروسة تملك لشقة بنتها وجهازها الفا وخمسائة جنيه . ومع هذا يكاد رأسها ينفجر من القلق لانه سيكون اقل من جهاز بنات خالنتها وعمتها .

والغريب ان بنتها وخطيبها الحاصل على الدكتوراه في الاقتصاد، وله مؤلفات في الاشتراكية ، لا يختلفان عنها فسي سيطرة التقاليد القديمة عليهما ، وتمسكهما بالمظهر .

ويشكو الزيتون التاسع من اولاده الثلاثة : الاصفر فاسد الخلق ، بلاهتمامات جادة . والاخران احدهما يساري والثاني يميني ، يتراشقان كل يوم امام الاب بعبارات واتهامات خطيرة . كما انه يعاني من انسحاق في المدنية الحديثة المليئة باشارات المرور والقيود والسرعة .

فهل يتضمن نعي الحكيم على المدنية الحديثة ، بهذا الشكل النحاد ، دعوة الى رفضها والعودة الى القرى الهادئة ، مثلما نجد لدى الرومانسيين الذين صدمت احاسيسهم واحلامهم بعصر العلوم والمخترعات ؟!

هذه المدنية هي التي توفر مزيداً من الراحة للانسان .

المهم ان الوجيه يطلب الاب ليحضر هذين الاخوين .

وخلال محاولات شعبان ان يوثق صلته بفاطمة هانم ، لكي يبلغ مرفت ، تدعوه فاطمة الى بيت خال في المادي . وهناك يفاجأ بان ام مرفت التي قيل انها متوفاة لا تزال على قيد الحياة ، وانها مصابة بالجئون . اصببت به عندما اكتشفت الملاقة الجنسية بين زوجها واختها فاطمة ، فاحرقت زوجها بالنار ، والتصقت به ، فدفعها عنه لتعيش فاقدة العقل .

صورة بشعة لماسي هذا العصر ، عند هذه الطبقة المنحلة ، تعمق الاحساس بالقلق .

في هذا البيت ، وفي غرفة المكتب المجاورة ، اكتشف شعبان سر هذا الوجيه المخادع . عثر في احد ادراج المكتب على ما يشير الى انه يمتلك اشربة تسجل التنمر ، الذي واجهناه في المناظر السابقة، يتعامل بها مع « جهات اخرى » من اعداء بلاده واعداء الثورة .

وقد تم هذا الاكتشاف في نفس الوقت الذي كان الوجيه يزمع فيه مد نشاط بنك القلق الى الاقاليم عن طريق جهاز صغير يسجل قلق الناس في القرى وضيقهم بالحياة .

اذ ذاك يتفق الصديقان على ابلاغ البوليس : « فقط سنقول لهم ان يضعوا منير عاطف تحت المراقبة ونطلب من جهات الامن اخلاء طرفنا من اي مسئولية جنائية » .

وبهذه الطريقة ينجوان من الورطة التي سقطا فيها ، واتاحت لنا - خلال عشرة فصول وعشرة مناظر - ان نطلع على كثير من افكار الحكيم في الحياة الجديدة ، بما تنطوي عليه من نقد اجتماعي واخلاقي.

نبيل فرج